تطور الكتابات الأثرية على المسكوكات العثمانية

الكتابة في العهد العثماني

ـالنقود في العهد العثماني :

أفرد الأستاذ الباحث ناصر الدين سعيدوني حيزا مهما للحديث عن النظام النقدي في العهد العثماني في كتابه: " النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني" ، حيث ذكر أن حكام إيالة الجزائر أصدروا سكتهم الخاصة بهم بعدما أنشأوا دارا للضرب بمحاذاة قصر الداي ، و التي انتقلت بعد ذلك إلى القصبة ابتداءً من سنة 1817م ، ولعل أهم ما ميز المسكوكات الجزائرية في العهد العثماني خلوها من صور الحكام و الشعارات و الرموز ، إضافة إلى تصميمها الذي تميز بالاستدارة ، وفيه محاكاة للنقود التركية المتداولة في أستانبول وباقي مقاطعات الدولة العثمانية عكس باقي العملات في الأقطار المغاربية وز التي جاءت مربعة الشكل ، هذا الأخير كان أحد خصائص النقود الموحدية ، وأما قيمتها فقد تعددت من عملات ذهبية ,فضية ,برونزية ونحاسية ولكن شح المعادن في الجزائر لأسباب عدة منها عدم وجود مناجم كبرى كذلك لانقطاع ذهب السودان منذ القرن السابع عشر ,بعد تزايد نشاطات البرتغال في غرب إفريقيا ,كلها عوامل اضطرت حكام الجزائر الأتراك إلى دعم دار السكة مباشرة من المعادن الثمينة المكدسة في خزينة الدولة , وان كان ذلك حسب رأينا لم يكن بالقدر الكافي.

فالسؤال الذي يبقى مطروحا إلى يومنا هذا لماذا لم يستغل حكام الجزائر الأتراك الوفرة المالية التي كانت تزخر بها خزينة الدولة من عائدات أعمال القرصنة في بناء الاقتصاد الجزائري على أسس صحيحة وسليمة؟ أو على الأقل تقويم النظام النقدي والعملات المحلية في وقت عزت فيه العملات حتى اضطر الناس الرجوع إلى نظام المقايضة البدائي ,بفعل النقص الكبير للعملة إلى جانب فقدان الثقة في العملات النقدية بسب انتشار عمليات التزوير .ونحن لا نبالغ في التضخيم من حجم خزينة الداي فرغم تضائل عائدات أعمال القرصنة في أواخر العهد العثماني إلا أن الخزينة كانت مكدسة بأموال وعائدات خيالية , كما يؤكد على ذلك بيير بيان Pierre Péan في كتابه القيم, main basse sur Alger3 » « هذه الكنوز التي ثم تحويل أكثرها من طرف كبار الضباط مثل ديبرمون""Du Bourmont والعائلات الثرية إلى وجهات خاصة في واحدة من أعظم عمليات النهب واللصوصية في التاريخ ,هذه الأموال التي سمحت ببعث الصناعة الحديدية والمعدنية الفرنسية.

وهذه نتيجة منتظرة لعقلية" الاكتنازthésaurisation" التي كانت تسيطر على عقول ونفوس حكام الجزائر, في وقت اعتمدوا فيه على الحلول الترقيعية كشراء المعادن الثمينة من العامة بغية دعم العملة ,إلا أن ذلك ظل غير كافي خاصة مع ندرة العملة ورواج عمليات التزوير, وهذا ما تسبب في فقدان الثقة واللجوء إلى المقايضة, كل ذلك كان بسبب ما ألت إليه الجزائر من تدهور للأوضاع الاقتصادية والمعيشية ,في وقت تطورت فيه النظم المالية والنقدية الأوربية ,بعدما تأسست المؤسسات المالية والبنوك وتطورت المعاملات والتحويلات النقدية باستعمال السندات والصكوك مع سهولة انتقال الرساميل.

هذه التطورات النقدية والمالية التي كانت تمر بها أوربا أراد الأتراك في الجزائر استعمالها لصالحهم ,وذلك بفتحهم الباب على مصراعيه أمام تدفق العملات الأوربية والأجنبية في السوق الجزائرية , وهذا ما ساعد على توفير النقود الضرورية في التعاملات التجارية ,ويبدو إن هذه العملات تم الحصول عليها بشتى الطرق سواء بفضل نشاطات الشركات الأجنبية ,الإتاوات والهدايا وإجراءات عتق الأسرى المسيحيين, إضافة للعلاقات المميزة العثمانية الاسبانية ,الشيء الذي سمح بهيمنة العملات الاسبانية بكثرة على السوق الجزائرية .ولم يكن ذلك استثناء للقاعدة فقد استطاعت العملات الاسبانية من غزو السوق المالية العالمية في ذلك الوقت من أمريكا إلى الصين بفضل ذهب مستعمرات العالم الجديد.

وهذا ما يفسر هيمنة العملات الاسبانية على السوق الجزائرية ,رغم أنها لم تكن العملات الوحيدة ,فقد نافستها في السوق الداخلية العملات التونسية و المغربية وعملات كل الأقطار العثمانية المشرقية وعملات الجمهوريات الايطالية والنمسا والبرتغال وفرنسا . وكانت أشهر هذه العملات على الإطلاق المتداولة في الجزائر:

1- الدبلون وهو الدينار أو ما يعادله ذهباEL DABLAN . -

2-الدوكة , DUCAT وكانت تعادل دينار ذهبا.

3-الكورونة , COURROUNNE التي اشتهرت بكثرة وكانت من الفضة الخالصة

4-الدورو الاسباني . DOURO

5-الريال REAL المنتشر بكثرة.7

تم تأتي بعد ذلك من حيث الأهمية العملات التونسية نظرا للعلاقات التجارية الكبيرة عبر الحدود ما بين الجزائر وتونس وأهم هذه النقود.

1-الدرهم الناصري

2-الريال الفضي.

إضافة إلى رواج عملة »الزياني الذهبي « وهو من بقايا العملة الزيانية كما تم تداول النقود المغربية في الغرب الجزائري وذلك نظرا للنشاط التجاري المتزايد عبر محور تلمسان فاس .ومن بين أهم هذه العملات المغربية البندقي العشراوي ,نصف البندقي العشراوي المثقال الموزونة، الفلس ، الريال ، الدرهم ، إضافة إلى العملات التركية العثمانية.

-3المحبوب ، زر المحبوب الذهبي ،نصف المحبوب.

ورغم قوة العملات الأجنبية خاصة الاسبانية منها إلا أنها ظلت ثانوية بسبب فقدان الثقة بها من طرف العامة مقارنة مع العملات المحلية التي كانت تمثل شرعية الدولة ورمز من رموزها. وأهم العملات المحلية في تلك الفترة هي:

العملات الذهبية

-السكة أو السلطاني, نصف السلطاني, ربع السلطاني.

العملات الفضية

-ريال بوجو ,زوج بوجو,دورو الجزائر, العائمة,ربع بوجو,تمن بوجو,موزونة,زوج موزونة,الأسبر الفضي.

العملات النحاسية

-الخروبة ريال,درهم صغير ,زوج دراهم صغار,الأسبر النحاسي ,الفلس.

إلا أن أهم ما ميز العملة الجزائرية في تلك الفترة من أواخر العهد العثماني, عدم استقرارها وصعوبة تحديد قيمتها بسبب تذبذب الأحوال الاقتصادية والسياسية في البلاد ,ساعد على ذلك ندرة المعادن الثمينة كما ذكرنا ,مما تسبب في تدني القدرة الشرائية رغم تدني أسعار الغلال, زاد من ذلك رواج أعمال تزوير العملة خاصة في بلاد القبائل , رغم عقوبة الإعدام حرقا التي كانت تطال المزورين ,والعقوبات الجماعية ضد القبيلة التي يثبت تورط أحد أبنائها في عمليات التزوير بعدما يكون محل بحث ولم تستطع الدولة الوصول إليه.

كل هذه العوامل مجموعة تسببت في ركود الاقتصاد و عودة المعاملات بالمقايضة البائدة ,في وقت تطورت فيه المعاملات الاقتصادية في أوربا كما ذكرنا أنفا . هذه الظروف كلها أسهمت في تدهور الأوضاع الاقتصادية والسياسية في الجزائر,وزاد بعد الهوة بين الحكام الأتراك المستبدين, والغير مبالين بشؤون العامة وبين بقية الشعب الذي فقد الثقة في هؤلاء الحكام, الذين اختزلوا واجباتهم إزاء العامة في جمع الضرائب وبطريقة سادها الكثير من التعسف والظلم, فكل هذه الأجواء الموبوءة, ساعدت قوات الاحتلال الفرنسي من النزول في الجزائر ,واحتلال مدينة الجزائر من دون عناء كبير .

الخط العربي في العهد العثماني

أخذ الأتراك مبادئ الخط العربي من السلاجقة الروم ومنحتهم إيران القدر الذي أخذوه من مصر المملوكية، ومن هذا كله تكونت المدرسة التركية العثمانية التي كان لها الدور الكبير في تحسين الخطوط وتجويدها وابتكار الحسن والجديد منها ، فقد أضاف المذاق العثماني للخط العربي خلاصة للرحيق العاطر الشذى الذي تدفق ليضيف لتراث الإسلام الفني إعجازا عبقريا صنعه قلم من الغاب تناولته يد الإنسان المبدعة لتعطيه لنا تقاسيما أنغامها شرقية خالصة . وقد انتهج العثمانيون في القرنين (11-12 م /05-06 هـ) أسلوب الخطاط ابن البواب في عهد سلاجقة الروم ، وقاموا في النصف الثاني من القرن (13م – 07هـ) بانتهاج مدرسة ياقوت المستعصمي. وظل الحال على ذلك لانصرافهم للجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته ، ونشر الإسلام في الغرب ، وتثبيت أركان دولتهم الفتية ،إلا أن الاهتمام البالغ والرعاية الفائقة لفن الخط العربي يمكن أن يؤرخ له بعد فتح القسطنطينية سنة 857هـ / 1453م ،

حيث بدأ عصر النهضة و الازدهار يشمل كل مرافق الحياة ، ومن أهمها ميدان فن الخط ، فمنذ عصر السلطان محمد الفاتح(القرن 09هـ 15م) ، تم وضع أسس الخط العربي وإرساء قواعده ، وبعد فتحهم للعالم الاسلامي (922- 923 هـ / 1516- 1517م) في عهد السلطان سليم الأول (918-927هـ/ 1512- 1520م) ازدادت العناية و الاهتمام بفن الخط العربي حتى وصل ذروة حيويته ونضوجه في القرن العاشر الهجري ، السادس عشر ميلادي . على أيدي مجموعة من الخطاطين الأفداد.

ومن أشهر هؤلاء الخطاطين الحاج يحي الرومي وعلي بن يحي . ومن أشهر تلامذة الخطاط ياقوت المستعصمي الخطاط الشيخ حمد الله معلم الخط لبايزيد الثاني بن السلطان الفاتح عندما كان آمر لواء على مدينة أماسيا آنذاك. ويعد عصر هذا الخطاط بداية المدرسة العثمانية في فن الخط ، أما ما قبل ذلك فقد كانت هذه المدرسة تتبع ياقوت المستعصمي ومع اتساع رقعة السلطنة العثمانية بسرعة في ذلك الوقت انتشر أسلوب الشيخ حمد الله ، وقد أحدث هذا الخطاط انقلابا كبيرا في الخط وخاصة في كتابة خط الثلث والنسخ وكتبه بأسلوبه الخاص، ولقب بقبلة الخطاطين ، وأصبح مشهورا بعد أن توفي ياقوت المستعصمي ، وحذا حذو الشيخ حمد الله تلاميذه وقلدوا أسلوبه في الخط وامتازت سلالة هذا الخطاط بكثرة الخطاطين وتوارثوه بينهم .

خط الثلث :

يعتبر خط الثلث من أصعب الخطوط وأكثرها جمالا ، ويمتاز بالمرونة ومتانة التركيب وبراعة التأليف وحسن توزيع الحليات ، ولهذا الخط أساليب مختلفة بحسب الخطاطين ، ويبدو ذلك في طريقة التشكيل و التجميل و التركيب الذي يبدو خفيفا أحيانا وثقيلا أحيانا أخرى . لقد ظهر جليا الاهتمام الكبير و العناية الكبيرة التي أولاها العثمانيون للخط العربي ، وتلك المجهودات الكبيرة التي بذلوها من أجل تطوير وجودة الخط العربي ، و التي كانت على مستوى سلاطين الدولة العثمانية الذين لم يبخلوا في دعم وتيرة ازدهار هذا الفن وأضفوا عليه جانبا من القدسية التي دفعت الكثير منهم إلى سبر أغوار هذا الفن وبالتالي استطاعوا أن يبلغوا ذروة في الإتقان والتخصص وأخرجت المدرسة العثمانية التي كانت المدرسة البغدادية و المغربية من أبرز روافدها وهذا مانراه جليا في استعمال خط الثلث الذي يعتبر كما سبق وأن ذكرنا من أصعب الخطوط ولا يسمى الخطاط خطاطا إلا إذا أجاده و تحكم في ضوابطه وفي نفس الوقت يعتبر جوهرة الخطوط أيضا ، وقد جسد الفنان العثماني على المسكوكات الجزائرية أبرز السمات الفنية و القيم الجمالية التي ميزت هذا النوع . وقد زاد العثمانيون في ابتكار الكثير من الخصائص التي لم تكن موجودة عند أوائل الخطاطين المؤسسين له مثل ابن البواب .

الخط المغربي:

يعتبر الخط المغربي أحد امتدادات الخط الكوفي ، أي أن هذا الخط هو اشتقاق للخط الكوفي حيث أخذ طابعا خاصا ميزه عن غيره ، وانفرد باستقلالية تامة كنوع من أنواع الخط العربي ، وهذا الخط كما سبقت الإشارة منتشر في شمال إفريقيا وبلاد المغرب العربي بصفة خاصة ويعود تاريخ نشأة هذا الخط إلى القرن الثالث هجري وسمي بالخط القيرواني نسبة إلى القيروان ، ويتميز عن باقي الخطوط العربية بأن حرف الفاء توضع فيه النقطة تحت الحرف بينما توضع نقطة واحدة فوق القاف .

ولقد جسد العثمانيون أهم السمات الفنية لهذ الخط على مسكوكاتهم واستفادوا من خصائصه و التي من بينها تحرر الحروف من التركين حيث بدت فيه أكثر استدارة من ذي قبل مع المحافظة على جزء من المميزات التي تتسم بها في الخط الكوفي

وهي أن الحروف تبدو سميكة في أعلاها ورقيقة في لأسفلها وقصيرة بعض الشيء في نواحي أخرى.

وفي الجزائر في الفترة العثمانية كان التفنن في الخط و الكتابة من وسائل التعبير الجمالي في هذا العهد ، ففي الوقت الذي غاب فيه التصوير لعب الخط دورا بارزا في إظهار المواهب الفنية المحلية ، حيث برع بعض الخطاطين و النساخين وانتشرت مهنتهم ، حيث لاقت تقديرا كبير بين الناس، فكانت الكتابة المنحوتة أو المنقوشة على جدران المساجد وأبوابها ومحاريبها ، وكذلك القصور ونحوها من المنشآت ، كانت تجمع بين فن الخط والتصوير و النحت ، ومع ذلك فالتآليف الخاصة بهذا الفن منعدمة بين علماء الجزائر خلال هذا العهد.

السلطان
عثمان خان
عز نصره
جزائر ١١٧١

سلطان
ابن سلطان
ابن سلطان

خط الطغراء:

وردت لفظة " طرة " في المصادر التاريخية خلال العصر العثماني كلمة كمرادف لـــ" طغراء" ، فجاءت على النقود بصيغة " سكة دينار عليها طرة " ، أو " دينار طرلي " ، كما ذكرت على الفرمانات بصيغة : " ... الأمر الخاقاني ... المتوج بالعلامة الشريفة ، و الطرة السلطانية المنيفة ...." ، لأن الطغراء توضع في بداية الكتب أو الفرمانات ، كما أنها كانت تتصدر المسكوكات.

وتعود أصول الطغراء إلى أواخر العصر العباسي وابتكرت كنوع من أنواع الخط ، وذكرت لأول مرة مرتبطة بالشاعر أبي إسماعيل الحسين بن علي المعروف بالطغرائي (453-515 هـ/1061-1121م) صاحب لامية العجمم ، وهو شاعر وعالم عباسي ، عمل في خدمة الدولة السلجوقية ، تولى الوزارة في فترة حكم السلطان السلجوقي مسعود بن محمد بن ملكشاه بمدينة إربل مدة قبل خمس عشرة وخمسة مائة.

الطغراء في العصر المملوكي:

استعمل المماليك الطغراء ، و هى عبارة عن كتابة اسم السلطان واسم أبيه وألقابه على شكل مخصوص ، ولها رجل مفرد بعملها بالديوان ، فإذا كتب الكاتب منشورا أخذ من تلك الطغراوات واحدة وألصقها عليه ، ثم إذا ألصقها كتب بأسفلها فى بقية وصلها فى العبارة الدعائية " :خلد الله سلطانه"، وتوضع هذه الطغرى بين الطرة.

الطغراء العثمانية :

الطغراء علامة سلطانية شريفة عالية الشأن سامية المكان، وهي كلمة تركية تدل على توقيع السلطان أو تأشيره، ويطلق اسم الطغراء على الحروف أو التوقيع المختصر للسلطان، وأصل الكلمة في لهجة الغز هو " طغراغ" بمعنى العلامة المطبوعة للحكم ودمغته، وحولت الكلمة إلى "طغرا " بسبب ما درج عليه الاستعمال في قواعد اللغة العثمانية من حيث إسقاط حرف الغين الذي يخرج من الحلق في نهاية الكلمات ، وتُعرف الطغراء في العربية بالـــ " توقيع " وفي الفارسية بالـ" نيشان" ومن هنا كان الموظف المسند إليه مهمتها يسمى " نشانجي" يعمل معه خطاط يسمى " طغراكش" أي الطغرائي ، وإذا لم يوجد هذا الخطاط نقشها النشانجي بنفسه.

وتعتبر طريقة الطغراء أروع صورة من الصور الزخرفية للكتابة العربية التي تفنن فيها الخطاط العثماني تفننا يبعث على الدهشة و الاعجاب ، بإخراجه صورة جديدة من الطغراء لم تكن معروفة من قبل.

الطغراء العثمانية متأثرة بالسلاجقة و المماليك :

انتقلت الطغراء إلى العثمانيين كأمر يفرضه التوارث السلجوقي – العثماني ، و الاحتكاك العثماني – المملوكي، ولاشك أن العثمانيين قد أخذوا هذا التقليد الرسمي من السلاجقة وطوروه إلى شكل متقن، مختلف تماما عما سبق من أشكالها ، مما أوحى بأن الطغراء علامة عثمانية خاصة وخالصة .

كتابة الطغراء العثمانية بالعربية :

كانت اللغة التركية هي اللسان الرسمي للعثمانيين ، ورغم هذا فإن العثمانيين ـو حكام المسلمين من غير العرب ـ قد أولو اللغة العربية جل اهتمامهم ، لأنها لغة الاسلام الذي يدينون به، و العجيب أن الطغراء العثمانية نُقشت على المراسيم و العملات وغيرها بالعربية، ولاريب أن ذلك مأخوذ عن دولة السلاجقة، لأن العثمانيون كانوا ورثتهم في الأناضول، حيث فضل بنو سلجوق كتابة نقودهم باللغة العربية حتى لا ترفضها الشعوب المنضوية تحت حكمهم، لأنهم ألفوا تلك اللغة على النقود الإسلامية، لاسيما أن معظم النصوص على النقود تتعلق بالآيات القرآنية وخاصة شهادة التوحيد و الرسالة المحمدية، التي لا يمكن قبول تسجيلها بغير اللغة العربية ، ومن الثابت أ العثمانيين قد نقشوا سكتهم في البداية بكتابات دينية.

أول ظهور الطغراء العثمانية على النقود:

يرجع أول ظهور للطغراء على النقود العثمانية في فترة حكم الأمير سليمان بن بايزيد (806-813هـ/1403-1410م) على أخشا مضروبة من الفضة لا تحمل اسم دار ضربها، ولكن تحمل تاريخ السك ، حيث جاءت كتابات الوجه باسم صاحب النقد على هيئة طغراء ، بصيغة " أمير سليمان بن بايزيد" ، أما الظهر فجاءت كتاباته داخل مربع مقسوم إلى قسمين عن طريق خط مستقيم بارز في وسطه على النسق التالي : " خلد الله ملكه/ 806، ونقش في الأماكن المحصورة بين المربع ومحيط النقد الدائري أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة ، تُقرأ من أعلى وفي اتجاه عكس دوران الساعة هكذا: " أبو بكر / عمر/ عثمان/ /علي " وينم عن هذا الطراز ثلاثة نماطج من الأخشا مؤرخة بعام 806هـ، أحدها محفوظ بالمتحف البريطاني بلندن، و الثاني محفوظ بمتحف استانبول ، و الثالث محفوظ بمتحف برلين بألمانيا

أقسام الطغراء:

وللطغراء العثمانية أربعة أجزاء، مقسمة على النحو التالي: الجزء الأول هو السراة، وهي كرسي الطغراء أو الجزء السفلي منها، ومنه يبدأ النص الأصلي . أما الجزء الثاني فهو بيضة الطغراء، وتشكل الجزء الأيسر من الطغراء وتطلق على القوسين الناتجين عن كتابة حرفي النون في كلمتي "خان" و"بن"، والقوس الخارجي يسمى البيضة الخارجية، والقوس الداخلي يسمى البيضة الداخلية . وثالث الأجزاء يسمى الذيل، وهو الجزء العلوي من الطغراء، ولها ثلاث رايات أو أعمدة .ورابع الأجزاء يدعى الذراع، وهو الجزء الأيمن من الطغراء، ويكون على هيئة خطين متوازيين مع انحناءة.

خط كتابة الطغراء :

كتبت الطغراء العثمانية بخط الثلث، وجاءت نسبة تسمية هذا الخط ـ كما هو معلوم- نسبة إلى ثلث قلم الطومار.

الأجزاء الرئيسية في الطغراء

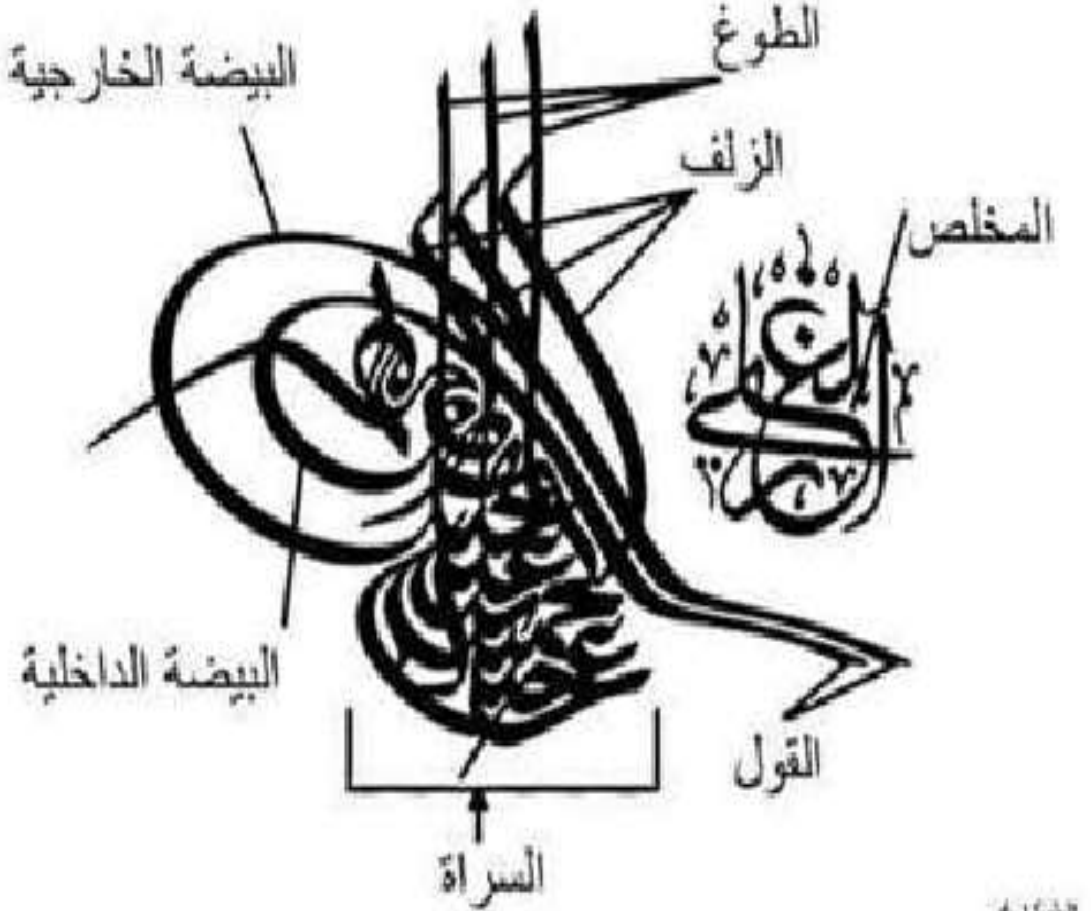

نموذج من طغراء على النقود الإسلامية بمصر